مقالة نقدية

(فكرة الفوقية الغربية)

(مرتكزاتها الفلسفية في التاريخ و تطبيقاتها في العصر الحديث)

بقلم:

عاصم بن عبدالحميد المقرن

راجعها:

البروفيسور د. جيمس وولف

(أستاذ علم الاجتماع، كلية الآداب و العلوم الليبرالية، جامعة إنديانابوليس، أمريكا)

*البروفيسور جيمس وولف راجع النسخة الأولى من المقالة، و كان هدفها النظر في صحة أدوات البحث و لا تعني تبني كل مافي هذه المقالة من نتائج و أفكار.

تقدمة:

في عام ١٧٨٩، و في قلب أوروبا الغربية، دقت طبول الثورة الفرنسية معلنة سقوط عصر الاستبداد الملكي في أوروبا، و ميلاد جديد. عصر العلمانية الذي يحرر الأوروبيين من القيود التي فرضتها القرون الوسطى لسنوات طويلة. شهدت أوروبا حينها تغيراً جذرياً في البنية الاجتماعية و الثقافية بظهور الحداثة و مفهوم الليبرالية على كافة الأصعدة الحياتية التي قادت أوروبا لتكون فيها دولاً صنعاية كبرى. مع بداية هذا العصر، كان ظهور ما يسمى بمصطلح الفوقية الغربية كهوية جديدة لأوروبا الحديثة. الحقيقة أن هذه الفكرة ليست وليدة الثورة، بل لها جذور قديمة متأصلة في الفلسفة الرومانية، توارثتها أوروبا جيلاً بعد جيل و حتى عصرنا هذا. فكرة الفوقية الغربية تشكل الجزء الأكبر من العقلية الغربية في الماضي و الحاضر. الفوقية الغربية عززت نتائج كثيرة منها العنصرية التي قادت إلى الاستعمار العسكري و السياسي في أفريقيا و الشرق الأوسط ودول شرق آسيا.

جذور الفكرة:

عظَّم الرومان حضارتهم حتى جعلوها هي الأولى على الإطلاق و ما دونها لا يرقى لمستوى الحضارة. أورد هذا محمد أسد رحمه الله تعالى في كتابه **(الطريق إلى مكة)** حيث يقول متسائلاً عن تبني الغربيين لأفكار ازدراء غيرهم : **(هل يعود ذلك إلى الروماني القديم الذي كان يقسم الأمم إلى إغريق و رومان في جانب، و باقي البشر المصنفين**

"برابرة" في جانب آخر؟). ثم قال: **(و ذلك النمط من التفكير قد انتقل إلى الفكر الغربي، و تأصل به حتى أنهم أصبحوا عاجزين -ولو نظرياً- عن قبول فكرة وجود قيم إيجابية في ثقافات أخرى تقع خارج محيطهم الثقافي و الفكري و المعرفي)**.

قام الغرب بوضع معايير لتقييم الحضارات مع جعل حضارته في المقدمة كقاعدة مضطردة. روبين جورج كليغرود ذكر في كتابه **(فكرة التاريخ)** أن أوروبا بعد عصر التنوير **(بدأت ترى التاريخ على أنه تقدمي من البداية المبسطة و حتى عصر العقل و الحضارة)**. و تراث ويليم هيغل كذلك يظهر شيئاً من تعصب الفلاسفة الأوروبيين لفكرة استعلاء حضارتهم الأوروبية و فردانيتها. كما فعل كثير من الفلاسفة، يعد هيغل أحد الأبآء الكبار لنظرية تقدمية التاريخ، أطلق نظرية شهيرة تسمى "الروح المطلقة"، ناقشها في كتابه **(فلسفة العقل)**، و التي تعني روح فردانية الجماعة، و تقوم النظرية بتقسيم الحضارات إلى مجموعات و رتب زمنية على حسب المراحل التي تطرحها الفكرة التقدمية. قام هيغل بجعل الحضارة الرومانية و الإغريقية في مرحلة النضوج و العقل في هذا المسار الزمني الذي تسير عليه البشرية. ومن اللطائف أن هيغل يزعم أن أوروبا هي المبتدى وهي المنتهى لكل ماهو في نطاق الفلسفة، فيقول: **(يجب علينا أن نجنب من الفلسفة كل ماهو شرقي، الفلسفة المطلقة مقرها أوروبا و فقط)**. نورد كذلك نظرية الفيلسوف أوقسط كومت صاحب كتاب **الفلسفة الوضعية**، و صاحب نظريات الأطوار الثلاثة

للمجتمعات التي تدخل في سياق الفكرة التقدمية للتاريخ التي طرحت من عدة فلاسفة. يُعبِّر كومت عن فردانية الغرب وفوقيته في آخر فصل من كتابه، واصفاً الأمم الأوروبية الخمسة الكبار التي تعدت طور الميثولوجيا و القضايا الثيلوجية و الميتافيزيقية إلى الطور العلمي و الوضعي، فيقول: **(فرنسا، بريطانيا، ألمانيا، إيطاليا و أسبانيا هم العناصر الخمسة لحركة التاريخ التي تنتهي بالبشرية إلى فردوس أرضي).** وفقاً لفكرة كومت، هذه الأمم الخمسة لديها الكفاءة لقيادة البشرية كلها باختلاف الحضارات و الأعراق و الثقافات لتحقيق فردوس موعد على هذه الأرض.

(الفوقية الغربية) من التنظير إلى الواقع:

كما أشرت سابقاً، فكرة الرومان و الأغريق عن سمو النموذج الحضاري الذي قدموه على النماذج الأخرى له جذور عميقة في العقلية الرومانية. هذه الفكرة وجدت في فلسفة عصر التنوير لدى فلاسفة أوروبا و التي بدورها عززت فكرة الفوقية الغربية. فالتاريخ يخبرنا عن فضائع مخرجات العنصرية الغربية و احتقارها للشعوب الأخرى، فحينما وصل كولمبوس و الأسطول الإسباني في القرن الخامس عشر الميلادي إلى العالم الجديد الذي سكنه قبائل الهنود الحمر، بدأت حملات التطهير العرقي بارتكاب مجازر جماعية لسكان أمريكا الأصليين. قدَّر بعض المؤرخون عدد ضحايا هذه الحملات الوحشية بعشرة ملايين إنسان. كل هذه المجازر كان دافعها فقط شغف المستعمر الأبيض بتطبيع العالم الجديد الذي سكنه الهنود الحمر لآلاف السنين إلى النمط الأوروبي.

على صعيد التمييز العرقي الذي تعرض له الأفارقة في أمريكا، أبراهام لينكون، الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية، و الذي يعده الكثيرون رمزاً في القضاء على العنصرية، يقول: **(هناك فروقات جسدية بين الإنسان الأبيض و الأسود و الذي يجعلني أؤمن إيماناً تاماً بأنه من المستحيل أن يتعايش العرقان مع بعضهما البعض و أن يتساوى كليهما على نطاق الحياة الإجتماعية و السياسية، ... إني موقن بأن العلو و السمو معهودان إلى الرجل الأبيض).**

العنصرية و فكرة الفوقية هو جانب رئيسي من تكوين العقلية الغربية. أحد نتائجها الاستعمار السياسي الأوروبي لدول العالم. رست السفن العسكرية الأوروبية في قارات العالم، معلنة استعمارها و سيطراتها الكاملة عليها، الأرض و البشر. استغل الاستعمار ضعف و فقر الشعوب المستعمرة، فوظفوهم في المزارع و المصانع و مناجم المعادن بأجور يومية زهيدة.

في القرن التاسع عشر، إبان الحرب الأمريكية في جزر الفلبين، راجت عبارة (The White Man's Burden) و ترجمتها (عبء الرجل الأبيض). العبارة تعود إلى قصيدة كتبها الشاعر رودريد كيبلينج، و نشرت في مجلة المكورلز سنة ١٨٩٩م، و التي تعلل استعمار الأمم البيضاء و تسمِّيه بأنه واجب مكلّفة به لمساعدة الأمم المتخلفِة المُستَعمَرة أراضيها.

تقول القصيدة:

(احمل عبء الرجل الأبيض

اذهب يابن خير سلالة

أرسل أبناءك للغربة

لتلمس حاجات الأسرى).

القصيدة تظهر عمق الإيمان الغربي بفكرة فوقية حضارتهم. فالشاعر وصف الشعوب المستعمرة بالأسرى عند الأمم البيضاء.

الفوقية الغربية في عصر مابعد الحداثة:

الغرب حافظ على فكرة الفوقية الغربية لقرون طويلة طوال التاريخ البشري. على أية حال، فالواقع يشهد انحسار هذه الفكرة وقلة انتشارها في المدن الكبيرة في الغرب التي يكثر فيها المهاجرون من عروق و أصول مختلفة. زاد يقين أبناء تلك المدن بأحقية غيرهم ممن يشاركونهم الأرض في العيش و ممارسة حريتهم الثقافية و الدينية وفق النظام. التغير في البنية الاجتماعية في المدن دون المناطق الريفية يعود إلى إيمان أهل المدن بالقيم كالتعايش و حرية الإختيار التي تقدمها المدنية الغربية، و هي في حقيقتها قيم مجزأة و هذه أحد تطبيقاتها المبسطة، أما الحرية الكاملة فهي من باب التنظير لا أكثر وليس هذا محل نقاشها.

في حقيقة الأمر، الغرب يواجه تحدياً كبيراً في تحديد هويته. يترجم هذا التحدي عدة صورة من النزاعات على الإطار الإجتماعي و السياسي و الإقتصادي. فعلى الصعيد

السياسي، نجد هذا النزاع يظهر على شكل تصادم الأحزاب السياسية، بين اليمين المتطرف و الأحزاب اليسارية، مع بعضها البعض و التي يَدَّعي كل منها الوصل بقوانين المدنية الغربية و قيمها الأولى. في الإقتصاد، يظهر الاختلاف على الصراع بين التفسيرات للرأسمالية، بين الرأسمالية الحكومية و الرأسمالية الاجتماعية. في الإطار الإجتماعي، بعد التغير الهائل في البنية الاجتماعية في الغرب بسبب زيادة أعداد الوافدين بمختلف ثقافاتهم و أعراقهم، كان الصراع في الإجابة على سؤال (هل يجب على الغرب أن ينعزل؟ أو يقبل هذا التنوع و يتعايش معه؟). في الإجابة على هذه المسألة الذي يطرحه الواقع الغربي، تمايز الفريقان.

الغرب و الشرق:

في إطار العلاقات الدولية للغرب، يُظهر المشهد السياسي المعاصر اضطراب علاقة الشرق بالغرب، و هو في الحقيقة ماهو إلا صراع للحضارات و امتداد لتاريخ الصراع البشري مع الاعتبارات الدينية و الإقتصادية، و الأطروحات النيوليبرالية العربية التي تدعي انفصال الواقع عن التاريخ، مادافعها إلا روح الانهزامية و الرغبة المُلِّحة في تخطأت كل ماهو شرقي، و كما يسميه الدكتور جوزيف مسعد، أستاذ السياسة والفكر العربي الحديث بجامعة كولومبيا بنيويورك، بأنه نرجسية، فيقول: (**لأن النرجسية شقّان: شق إيجابي "حب الذات" وشق سلبي "كره الذات"، وفق منهج التحليل النفسي، وعندما نتابع الإنتاج الفكري العربي منذ القرن التاسع عشر حتى الآن، سنجد أن أغلبه كان**

نقداً ذاتياً لا يكل، وبالتالي ظهرت فيه نبرات جلد للذات مفادها أن المشكلة فينا وأننا يجب ألا نلوم الآخر).

الصراع الحضاري في الواقع المعاصر، عززه أمران الاستعلاء الغربي، و قبول فكرة أن يكون الشرق و الغرب شيئاً واحداً. التبشير بالليبرالية الذي يقوم به الغرب و الليبراليون الجدد في العالم الإسلامي هو فرع عن تصورهم لإمكانية حدوث تمازج الشرق بالغرب، و هو في نفس الوقت إيمان خفي بسمو النموذج الحضاري الغربي، يقول عالم الانثروبوجيا طلال أسد: **(المهمة الليبرالية تقتضي إعادة تشكيل الإسلام ليكون على شاكلة المسيحية البروتستانتية الليبرالية، وفي حال رفض المسلمون أهداف هذه الحملة، والتحوّل طواعية إلى الليبرالية، عندها يجب استخدام القوة العسكرية).** يوضح حل هذا الإشكال الدكتور عبدالكريم بكار فيقول: **(الغرب غرب، و الشرق شرق، و لايمكن لهما أن يصبحا شيئاً واحدا، و لكن سيكون بإمكان كل واحد منهما أن يستفيد من الآخر إذا ما راعى كل منهما حقوق الطرف الآخر، و خصوصيته الحضارية، و أخذها بعين الاعتبار في حالات التعاون و في حالات التنافس و العداء. و سنظل نؤمل بحصول شيء من ذلك، مهما كانت المعطيات السائدة باعثة على التشاؤم).** فأقول، أن الغرب يقف الآن في منعطف طرق لتحديد هويته، بين القديم و الحديث، و أيهما أكثر وصلاً لليبرالية و قيم المدنية الغربية، و لا زالت الأطروحات تلو الأطروحات تحاول الإجابة على هذا السؤال دون نتيجةٍ مرضية.

المراجع:

-العيش في الزمان الصعب، عبدالكريم بكار. دمشق ٢٠١٠

-ثلاث رسائل في الإلحاد و العلم و الإيمان، عبدالله الشهري. بيروت ٢٠١٤

- August Comte. (1974). Positive Philosophy.

- August Comte and Positivism: The Essential Writings. (1975). The University of Chicago Press.

- G. R. Hegel. (1971). Philosophy of Mind.

- John J. Macionis. (2015). Society the basics. Pearson.

- Joseph A Massad. (2015). Islam in Liberalism.

- Mohammed Asad. (1954). The road to Mecca. The book Company.

- R. G. Collingwood. (2005). The idea of History. Oxford University Press.

- Rudyard Kipling. (1899). McClure’s Magazine.